الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية في الدولة الأموية

الدولة الأموية،(41-132هـ، 661-750م). هي الدولة الأولى بعد انتهاء عصر الخلفاء الراشدين عام 41هـ حيث آلت خلافة المسلمين إلى معاوية بن أبي سفيان بنأمية إثر مقتل الخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، آخر الخلفاء الراشدين .

ينتسب الأمويون إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصي، ويلتقي نسبه مع نسبالرسول ³فيعبدمناف. وكانأمية فيالجاهلية سيدًا منسادا تقريش،مساويًالعمههاشم بن عبد مناف (جد النبي عليه السلام) في الشرف، ولكن يفوقه في المال والولد .وكان البيت الأموي والبيت الهاشمي يتنافسان على رئاسة قريش بمكة. فلما ظهرت النبوة في بني هاشم؛ تفوقوا على بني أمية في الشرف، وزادوا شرفًا حين تسابقوا للدخول فيالإسلام ومناصرة الرسول ³فيالدعوة والجهاد بالنفس والمال، ولم يناصره من بني أمية إلا القليل، وقاوم معظمهم الإسلام بقيادة أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية، الذي لميدخل الإسلام مع بعض الأمويين إلا عند فتح مكة عام 8هـ، 629م. وحاولوا أن يتلافوا بعد هذا ما فاتهم من شرف السبق بالإسلام ونصرته، فأبلوا في فتوح الشام. وعندما أصبحمعاوية واليا على الشام، اجتذب إليه قلوب أهلها بسياسته ودهائه، وقد استمر في هذهالسياسة حينما آلت إليه مقاليدالدولة الإسلامية كلها، فجعل من دمشق عاصمة للدولة، ووطد فيها أركان ملكه.

خلفاء بني أمية .تعاقب على خلافة بني أمية أربعة عشرخليفة، حكم أربعة منهم لنحو سبعين سنة بينما حكم عشرة خلفاء لإحدى وعشرين سنة فقط .والخلفاء هم: معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية (41-60هـ)؛ يزيد بن معاوية (6460 - هـ)؛ معاوية الثاني بن يزيد بن معاوية (64هـ)؛ مروان بن الحكم بن أبي العاص (6564 - هـ)؛ عبدالملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية (65 - 86هـ)؛ الوليد بنعبدالملك (86 - 96هـ)؛ سليمان بن عبدالملك (96 - 99هـ)؛ عمر بن عبدالعزيز ابن مروان(99 - 101هـ)؛ يزيد الثاني بن عبدالملك (101 - 105هـ)؛ هشام بن عبدالملك (125105 - هـ)؛ الوليد الثاني بن يزيد الثاني (125 - 126هـ)؛ يزيد الثالث بن الوليد بنعبدالملك (126هـ)؛ إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك (126هـ)؛ مروان بن محمد بن مروانابن الحكم بن أبي العاص (127 - 132هـ).

الأمويون والجهاد لنشر الإسلام .اهتم الأمويون بالجهاد فيسبيل الله ونشر الإسلام فوصلت دولتهم إلى حدود الصين شرقًا وإلى المحيط الأطلسيغربًا وإلى أسوار القسطنطينية شمالاً وإلى

بلاد النوبة جنوبًا. واعتزوا بهذا الدور .وشارك كثير من فتيانهم في قيادة فيالق الجهاد. وقد وردت فتوحاتهم في المناطقالمختلفة ودورهم في نشر الإسلام من خلال تراجم خلفاء بني أمية.

إسهام الأمويين في الحضارة .اهتم الأمويون باللغة العربيةفجعلوها لغة الدواوين والنقد والعلم والدولة عامة، ونمت في عهدهم حركة تعريبيةواسعة.

وتعدد في عهدهم الكتاب لتعدد مصالحالدولة .فكان هناك كتاب لكل ديوان من الدواوين المختلفة :الرسائل والخراج والجند والشرطة والقضاء، واشتهر من بين هؤلاء الكتاب عبدالحميدالكاتب، في عهد مروان بن محمد. وتمتع الكتاب بمنزلة كبيرة ومركز اجتماعي مرموق.

استحدث الأمويون وظيفةالحاجببعد موقف الخوارج ومؤامرتهم على حياة عليومعاوية وعمرو بن العاص، ونجاحهم في قتل علي بن أبي طالب. واختاروا القضاة من ذويالتقوى والورع، واحترموا أحكامهم. وأنشأوا محكمة للمظالم تشبه محكمة الاستئناف فيزماننا هذا، تعرض عليها القضايا التي يعجز القضاء العادي عن تنفيذ الحكم فيها، أويلجأ إليها المتقاضون الذين يعتقدون أن القاضي لم يحكم بينهم بالعدل. وكانت تعقدتحت رئاسة الخليفة أو الوالي أو من ينوب عن أحدهما. وكان عبدالملك بن مروان أول منجلس من الخلفاء الأمويين للنظر في ظلامات الناس.

ويذكر التاريخ لعمر بن عبدالعزيز أنه أول من أمر بتدوين الحديث النبوي الشريفتدوينًا رسميًا منظمًا.

اهتم الأمويون بالعمارة، وتشهد لهم قصور البادية،كقصر عَمْرةفي الأردنوغيره، والجامع الأموي في دمشق، حيث تفنن البناؤون في زخرفتها وطراز بنائهاوحمَّاماتها وأسوارها، وغيرها من العناصر الجمالية الراقية.

واعتنوا بالأدب منذ أيام معاوية . فهو أول من أنشأ بيتًا للحكمة (أي مركزًاللبحث ومكتبة). وبلغت الصياغة في الترجمة أوجها في عهدهم وكثر التأليف باللغةالعربية. و تصدى الوليد بن يزيد لجمع ديوان العرب: أشعارها وأخبارها وأنسابها.

واهتموا بالتعليم، فكان معاوية أول من أنشأ المدارس الابتدائية (الكتاتيب) .والتفتوا إلى أهمية المراصد الفلكية، فبنوا مرصدًا في دمشق. وأحدثوا البريد بمراحلهوفنادقه وخيوله السريعة. ووضعوا نظام الأوقاف والأحباس ودواوين الملك ومراسيمه،ونظام الحِسْبة وأنظمة القضاء وسجلاته.

وبلغوا في التنظيم الحربي شأواً عظيمًا. أوجدوا نظام الكراديس وهي طوائف منالخيول والجيش. وساد أسطولهم على البحر الأبيض المتوسط، وغزت سفنهم القسطنطينيةواشتد حصارهم لها حتى كادت تسقط في أيديهم.

وحرصوا على تنمية مواردالدولةالمالية. فأصلحوا وسائل الري ونوعوا في المحاصيلالزراعية، واستصلحوا الأراضي البور، وفتحوا القنوات وبنوا السدود. ولعل أول من فعلهذا منهم يزيد بن معاوية، وكان مهندسًا، وهو الذي فتح مجرى نهر يزيد المعروف باسمهفي دمشق.

عوامل سقوطالدولةالأموية

العصبية العربية .اتسمت سياسة الأمويين بالاعتماد علىالعرب وتمييزهم على غيرهم. وأدت هذه السياسة إلى نفور كثير من العناصر غير العربيةمن الأمويين وانضمامها إلى الأحزاب المعارضة للحكم الأموي، مثل الشيعةوالخوارج.

العصبية القبلية .بالرغم من أن الإسلام سعى إلى القضاءعلى العصبية القبلية وأحل محلها رابطة الإخاء الإسلامي. فقد أطلَّت القبلية برأسهافي عهد الأمويين من جديد ولكن في نطاق ضيق، نتيجة لسياسة بعض الأمويين التي قامتعلى تفضيل قبائل دون أخرى. فاحتدم الصراع بين القبائل المضرية والقبائل اليمانية،وقامت بسبب هذا بعض الفتن والثورات، خاصة في عهد الوليد بن يزيد بن عبدالملك.

ولاية العهد .سعى معاوية إلى أخذ البيعة لابنه يزيد دفعاًلفتنة محتملة. وقد أصبح هذا النهج سنة اتبعها كل خلفاءالدولةالأموية، وأدى ذلكإلى وقوع نزاع بين أبناء الأسرةالأموية .فمثلاً انتقم سليمان بن عبدالملك من كل من كانوايشجعون أخاه الوليد على خلعه من ولاية العهد، حتى قتل من بينهم اثنين من أعظم قوادالفتوح الإسلامية، هما: محمد بن القاسم الثقفي وقتيبة بن مسلم. وترتب على هذاانشقاق في البيت الأموي، فكانت فرصة ثمينة لمن رغب في إسقاط حكمهم.

المحاضرة الثانية/ السداسي الثاني/ أولى ماستر أدب عربي قديم

أغراض الشعر الأموي وتطوره

أصابتالدولةالإسلامية في العصر الأموي حظًا كبيرًا من الاتساع والتحضر عن طريق الفتوحات،والتطور العمراني والسياسي والعلمي، فقد ألقت الفتوحات إليها بالمال. أما التطورالعمراني فتمثل في اقتباس أساليب العمران والزراعة والإدارة التي تمثلت في تطويرالدواوين وتنظيم شؤون الحكم والمال، فضلاً عن اتساع مجالات الاستثمار. كما تطورتمظاهر الحياة المادية، من مسكن وملبس ومأكل ومركب.

ظهرت في العصر الأموي تيارات علمية ثلاثة هي تيار التراث الجاهلي شعرًا وقصصًاوأمثالاً وأنسابًا، وتيار التراث الإسلامي تفسيرًا وحديثًا وفقهًا وقراءاتٍ وسيرة،وتيار الثقافات الأجنبية أدبًا وترجمة ومعارف منوعةً. فنشأت من ثمّ مدارس فكريةمتعددة، تباينت في الأخذ بواحد من هذه التيارات، أو بالجمع بينها

والفتوحاتبدورها قد أثمرت رصيدا من المعارف الأجنبية، وأثمرت أيضًا هذا الثراءالواسع، وهذا الخليط من الأجناس الذي امتزج بمجتمعات الحواضر العربية، وكان لهتأثيره في العادات والتقاليد، ثم في إحداث حركة عريضة في الغناء والموسيقى، وكان لهأثره في الشعر العربي، كما كان لما أحدثه من اتساع بالغناء أثره أيضًا في ذلكالشعر. وهنا تبرز أسماء لمشاهير المغنِّين والمغنيات مثل طُوَيس ومَعْبد وسائبخاثر، وعزة الميلاء وسلاَّمة القَس وجميلة.

أدت الحواضر العربية دورًا كبيرًا في الحركة الأدبية العقلية والغنائية، إذ عملتكل من البصرة والكوفة على جمع التراث العربي الإسلامي، رواية وتدوينًا، لغةً وشعرًاوأخبارًا وحديثًا وفقهًا. وتهيأت المدينتان الكبيرتان لأن تكونا مدرستين متنافستينفي رواية الأدب، ثم في اللغة والنحو. أما مكة والمدينة فاشتهرتا بالعلوم الدينية،كما نشطت فيهما حركة الشعر. وأما سوق المربد فتحوّل من مجرد سوق إلى مركز أدبي نشطعلى مشارف البصرة.

عرف العصر الأموي عددًا من الفرق الدينية السياسية، كالشيعة والخوارجوالزُّبيريين، وكان لكل فرقة رجالها وآراؤها في الخلافة، بل كان لكل فرقةٍ شعراؤهاوخطباؤها ومنابرها، وقد دخلت هذه الفرق في صراع ذي شقين: شِق سياسي، حيث قاوموا حكمالأمويين بالمعارضة والجدل، وشّق عسكري تمثل في مقاومة الأمويين بالحروب والثورات .وانعكس صراع تلك الفرق على الحياة الأدبية من جَدل ومناظرات قوامها البرهانوالدليل.

الشعر .ارتبط الشعر العربي بالعصر الأموي ارتباطالخصوصية، بمعنى أن ثمة فنونًا شعرية جديدة ظهرت في العصر الأموي واختفت بزواله،فالنقائض بشكلها المعروف وتقاليدها الجديدة هي ثمرة من ثمار الشعر الأموي، وكانأبرز شعرائها الفحول الثلاثة، جرير والأخطل والفرزدق. كما أن الشعر السياسي بصبغتهالمعروفة هو ابن شرعي لهذا العصر، فقد كان لكل فرقة شعراؤها، مثل الكميت شاعرالهاشميين، وابن قيس الرقيّات شاعر الزبيريين وغيرهما.

أمّا الغزل فبالرغم من أنه من أغراض الشعر القديمة المعروفة، إلاّ أنه لقي فيهذا العصر اهتمامًا كبيرًا، وأصبح تيارًا قويّا له شعراؤه وجمهوره ومدارسه، وكانأشهر تياراته تيار الغزل العذري العفيف وزعيمه جميل بن معمر، والغزل الصريح اللاهيوزعيمه عمر بن أبي ربيعة.

وعلى كلٍّ فإنّ بني أمية كانوا يتمتعون بحظٍ أدبي عربي جعلهم يشجعون الشعراءويعقدون لهم المجالس، ويُجزلون لهم العطاء، بل كان منهم شعراء ذوو أثر في حركة الشعر كالوليد بن يزيد.

كما كان بعضهم يكتب إلى الشاعر أو الراوية فيستقدمه من العراق إلى الشام علىالبريد كما فعل هشام ابن عبد الملك مع حماد الراوية.

المحاضرة الثالثة/ السداسي الثاني/ أولى ماستر ادب عربي قديم

عمر بن أبي ربيعة والأخطل

أولا؛ عمر بن أبي ربيعة:

أبو الخطاب عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، المولود سنة 23 هـ / 643م يتيم الأب، وحيدًا لأم أغدقت عليه من الدلال ما يليق بحجم ثراء عائلته ورفعة نسبه، فنشأ ذلك الشاب الثري الوسيم مفرطًا في اللهو، ومتباهيًا بموهبة الشعر في مجتمع نبلاء مكة الذي كان يعج بالجواري الجميلات المتهاديات على وقع الموسيقى وتفانين الغناء الحجازي. فما لبث هذا الشاعر الثري حتى جعل من شعره مقصد الطرب وموضع الألحان التي كان يستدرج صناعها، عبر جوائزه المالية، نحو صناعتها على هدي من أوزانه وقوافيه، فسالت وديان مكة بالأغاني والأصوات المتكئة على قصائده، وسارت بين أروقتها حكاياته مع النساء المنتميات لمختلف طبقات المدينة المترفة آنذاك. فلم يمنعه نسبه القرشي ومحتده النبيل من التغزل بالجواري اللاهيات فتنة وشبابًا، ولا بسيداتهن المترفات غنجًا ودلالاً، وكان العامل المشترك الأول بين سيدات المجتمع المكي وجواريه لدى ابن أبي ربيعة، أنهن نساء جميلات، يلقن بالغزل ويليق بهن، بمعزل عن انتمائهن الاجتماعي.

إنه الشاعر الذي أجمع على شعريته، الخارجة عن نطاق الطبقات، التي كانت تتخذ معيارًا لمستوى الشاعر في زمنه، شاعران متناقضان للدرجة التي جلعت منهما رمزًا دائمًا لفن النقائض، ونعني بهما جرير والفرزدق ، فقد قال الأول عنه: «ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر»، أما الآخر، فقال وصًفا لقصيدة لابن أبي ربيعة «هذا الذي كانت الشعراء تطلبه، فأخطأته وبكت الديار، ووقع هذا عليه» وعلى هامش من الرأي المتوافق للشاعرين غير المتوافقين سئل حماد الراوية، باعتباره أحد أشهر نقاد ذلك العصر الذي انتمى إليه الشعراء الثلاثة، عن شعره فقال: «ذاك الفستق المقشر.«

ولـ «الفستق المقشر» لدى عمر بن أبي ربيعة مدرسة صار رائدها الأول، في وقت لم يكن الشاعر فيه قادرًا على تجاوز مألوف الشعر إلى نوابغ أهله إلا عبر التجويد في أبوابه التقليدية فمدح وهجا وافتخر ورثى. أما أن يقصر شعره كله على باب المرأة وصدى معانيها في مرآة ذاته، وعلى ذاته وصدى معانيها في مرآة المرأة، فهذا هو الجديد الذي بنى عبره شاعر قريش الأول، كما نظر إليه كثيرون، مجده الشعري ومعنى وجوده الإنساني في معظمه. وله في ذلك من القصص ما امتلأت به كثير من الكتب، واحتفى به كثير من المؤرخين والمؤلفين مأخوذين بفرادة الشاعر المحلق خارج السرب كله بأجنحة من هوى وقصيد.

ولعل قراءة نفسية سريعة لديوان شاعرنا تكشف لنا عن خبرة عميقة في النفسية النسوية بشكل عام تميز بها الشاعر، ووظفها التوظيف الأمثل في شعره، فبالرغم من عنايته بأوصافها الخارجية، كما فعل غيره من شعراء العرب، غاص ابن أبي ربيعة في دواخلها فأتى بكثير جديد مما لم يرد في أشعار من سبقه ومن لحقه أيضا.

وبالرغم من أن شاعر المرأة الأول، كما يحلو للبعض أن يسميه، كان موكلاً بالجمال يتبعه حيث ذكر حتى في الحرم المكي، كما تقول الكثير من الروايات التي أسهبت في توصيف حكاياته معهن في أجواء فريضة الحج تحديدًا، فإن ذلك لم يشغله عن النظر إلى المرأة، حيث جعل من نفسه موضوعًا شعريًا ممتزجًا بموضوعه الأثير، فكان والمرأة مزيجًا من الغزل المتبادل بينهما على لسانه عبر حواريات شعرية تميزت بطرافة غير معتادة في النسيب العربي التقليدي. ولعل في الحوارية النسوية بامتياز، التي نقلها لنا الشاعر في واحدة من قصائده الشهيرة صورة لشعرية ابن أبي ربيعة الغزلية بطبيعتها المزدوجة، فيقول:

بينما ينعـتنني أبـصرنني ... دون قيد الميل يعـدو بي الأغر
قالت الكبرى: أتـعرفن الفـتى؟ ... قالت الوسطى: نعم.. هذا عـمر
قالت الصغـرى، وقد تيمتـها: ... قد عرفناه. وهل يخفـى القمر؟

ولأن القمر يظل لا يخفى أبدًا، فها نحن ننظر إليه ونستمتع بجمالياته الخالدة عبر مختارات انتقيناها لهذا العدد من ديوانه الذي قصره على الغزل لولا بعض الأبيات المتفرقة في الفخر والوصف، والتي ربما قالها عندما تقدمت به السن وانقطع إلى حياة التوبة والنسك قبل أن يتوفاه الله سنة 93 هـ / 711م.

ثانيا؛ الأخطل:

ولد الشاعر الأخطل التغلبى عام 640 م فى دمشق حيث إنسجم مع الخلفاء الأمويين وأصبح شاعرا لهم وكان يهاجم بشعره خصومهم، وعرف بشاعر العصر الأموي عام 661 حيث راعى فى شعره الشكل الشعري العربي المعروف في التقاليد البدوية القديمة

كان الأخطل مسيحيًا ولكنه لم يقم واجباته الدينية بجدية فكان مدمناً على الشرب والنساء وكان مقربا وصديقا للخليفة الأموي اليزيد الأول وقواده زياد بن أبيه والحجاج ، واصل الأخطل التقرب من الخلفاء حتى جعله الخليفة عبد الملك بن مروان شاعر الدولة الأموية الرسمي لكي يدافع عن الدولة بأشعاره ضد أعدائهم.

لا يعرف إلا القليل من حياة الأخطل الشخصية، بإستثناء أنه كان متزوجا وأنجب من زوجته أولادا ثم طلقها لسبب غير معروف وتزوج من إمرأة أخرى ولكن ظلت زوجته الأولى تذكره دائما وهو الأخر ظل يذكرها وكتب على فراقها قصيدة حزينة من أبياتها الشعرية:

كلانا على هَمٍّ يبيتُ كأنما ..بجنبيه من مَسِّ الفراشِ قروح
على زوجها الماضي تنوحُ وإنني ..على زوجتي الأخرى، كذاك أنوحُ

قضى الأخطل جزءًا من وقته في مدينة دمشق وجزءًا في بلاد ما بين النهرين، ودخل في حرب هجاء حيث شارك في ساحة المعركة في الصراع الأدبي بين معاصريه الشاعر جرير بن عطية والشاعر فرزدق ولكن الأخطل فضل الفرزدق على جرير وظل فى منافسة دائمة بينه وبين جرير حيث تفوق الأخطل في المدح والهجاء

بالإضافة إلى وصف الخمر ويرجع ذلك لثقافته اللغوية الكبيرة، ظهرت التقاليد البدوية ما قبل الإسلام دائمًا في قصائد الأخطل، وإكتسبت دواوينه الشعرية منزلة كلاسيكية، وقال النقاد على شعره بأنه مصدر للغة العربية

ظل الأخطل فى هجاء جرير حتى عند وفاته عام 710 م، أوصى رفيقه الفرزدق على عدم التوقف عن هجاء جرير فقال له: أُوصيالفرزدقَ قبل المماتِبأمٍّ جريرٍ وأَعيارها.

فنون النثر في العصر الأموي وتطوره

النثر .وأول فنونه وأكثرها ازدهارًا فن الخطابة، الذينهضت به عوامل مختلفة، أبرزها العوامل السياسية ممثلة في الفرق والثورات المختلفة،ثم عروبة بني أمية وولاتهم من أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي، ثم هناك عامل الجهادالذي اتسع في عهدالدولةالأمويةبحكم رغبتهم في توسيع رقعةالدولةالإسلامية. وهناك عامل آخر مهم هو نمو تيار الوعظالديني، الذي تمخض عن خطباء كُثُر. وأشهر الخطباء الأمويين معاوية نفسه وعبد الملكبن مروان وعمر ابن عبد العزيز. ومن ولاتهم الحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن أبيه .أما خطباء الفرق، فإن أشهرهم من الخوارج أبو حمزة الشاري ونافع بن الأزرقوالطرمَّاح بن حكيم. ومن خطباء الزبيريين رئيسهم عبد الله بن الزُّبير نفسه.

وإلى جانب الخطابة السياسية عرف العصر الأموي الخطابة الدينية الوعظية، ومن أشهرخطباء هذا التيار: سعيد ابن جُبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيِّبوالحسن البصْري. وقد اتسع هذا التيار الخطابي وكثر رجاله، وزخرت المصادر بنصوصه .كما وُجدت خطابة الوفود إذ كان معاوية بن أبي سفيان أول من فتح أبواب قصره للوفودالتي وفدت إلى ساحته. وممن خطب بين يدي معاوية سحبان وائل والأحنف بن قيس.

شهد فنَّ الكتابة "الرسائل الديوانية"نقلة كبيرة في العهد الأموي خاصة في عهد هشام بن عبد الملك عندما تولى مولاه سالمرئاسة ديوان الرسائل في عهده، ثم في عهد مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، الذيتولى أمر ديوانه عبد الحميد بن يحيى الكاتب. فقد عُرِف عبد الحميدبالبراعة في فن الترسل حتى غدت مكاتباته مضرب المثل في الجودة والإتقان، حتى قيل " :بدئت الكتابة بعبد الحميد ". ومن رسائله المشهورة رسالته التي كتبها عن مروان إلابنه وولي عهده عبدالله حين وجهه إلى محاربة الضحاك بن قيس الشيباني الذي ثار فيالعراق، ورسالته التي وجهها إلى

عمال مروان بن محمد بالأمصار يأمرهم بمحاربة لعبةالشطرنج، ورسالته التي وجهها إلى الكُتَّاب وأصبحت دستورًا لمهنة الكتابة.

وفي مقابل الرسائل الديوانية، يوجد نوع آخر من الرسائل يعرفبالرسائلالإخوانية، وهي التي يكتبها الناس بعضهم إلى بعض في موضوعات إخوانية، كالتهنئة،والتعزية والبشارة والعتاب، وغير ذلك من أمور الحياة.

وهناك رسائل أخرى ليست ديوانية ولا إخوانية وإنما هيرسائل وعظية، ونعنيبها تلك التي يكتبها بعض الأتقياء إلى الخلفاء والسلاطين والأمراء يحثونهم علىالصلاح والتقوى والرأفة بالرعية، والاستعداد للموت، وما أشبه ذلك.

المحاضرة السادسة/ السداسي الثاني/ أولى ماستر ادب عربي قديم

الحياةالسياسية والاجتماعية والثقافية في العصر العباسي

العصرالعباسي656 – 132 هـ = 749 - 1258م

قامت الدولة العباسية على أثر ثورة ضد الأمويين كان العباسيون قد أعدّوا لها فيروية وإحكام وسريّة عام 132هـ، 749م. وسقطت الدولة العباسية بسقوط بغداد على أيديالتتار عام 656هـ، 1258م. وقد اصطلح المؤرخون على تقسيم هذه الخلافة العباسية إلىثلاثة عصور هي :العصرالعباسيالأول، من قيام الخلافة العباسية إلى أول خلافةالمتوكل (132 - 232هـ، 749 - 846م)، والعصرالعباسيالثاني334 - 232) هـ، 846 - 945م) من خلافة المتوكل إلى استقرار الدولة البويهية، والعصرالعباسيالثالث(334 - 656هـ ، 945 - 1258م) من استقرار الدولة البويهية إلى سقوط بغداد على أيديالتتار.

العصرالعباسيالأول(132 - 232هـ ، 749 - 846م). حققتالدولة الإسلامية في ظل العباسيين تقدمًا حضاريًا كبيرًا، إذ أفادت من جهودالأمويين ثم زادت عليها أضعافًا تأليفًا وترجمة، فضلاً عن ازدهار فنون الغناءوالموسيقى والعمارة، وازدهار وسائل العيش في الملابس والمساكن والطعام والشراب .وكان لخلفاء بني العباس إسهام كبير في تشجيع المدّ الحضاري وتغذيته، فعقدوا المجالسللأدباء والعلماء والمغنين، وأجزلوا العطاء، وأنشأوا المكتبات ودور العلم، وجلبواالكتب الأجنبية من شتى البقاع.

كانت دمشق حاضرة الخلافة الأموية، ثم صارت بغداد حاضرة العباسيين، وزخرتبالشعراء والعلماء وأهل الفن. وإذا كان الأمويون أدخلوا الثقافة البيزنطية، فإنالعباسيين قد تأثروا بالثقافة والحضارة الفارسية.

كان من الأمور الناجمة عن الثراء والترف والامتزاج بالشعوب التي فتحت بلدانها أننشأت تيارات منحرفة تمثلت فيالشعوبيةوالزندقةوالمجون .أماالشعوبيةفهم أولئك القوم الذين عادوا العرب، ولم يروا فيهم إلا بدوًا ورعاةغنم وسكان خيام،

ومجرّد قبائل لم تجمعهم دول منظمة مثل غيرهم من الأمم كالروموالفرس. ويعكس تيار الشعوبية حقد الشعوب المغلوبة على الأمة العربية التي حباهاالله برسالة الإسلام، وحقق لها الغلبة على أعداء هذه الرسالة. ومن أشهر دعاةالشعوبية: علاَّن الشعوبي وسهل ابن هارون وبشار بن بُرد وأبو نواس.

يفسّر الجاحظ في عبارة له تيار الشعوبية فيقول: "إن عامة من ارتاب بالإسلام إنماكان أولُ ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدال المؤدّي إلى الضلال، فإذا أبغضشيئًا أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرةأحبَّ من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذكانت العرب هي التي جاءت به، وهي السلف والقدوة". وعبارة الجاحظ هنا تصور بدقةالعلاقة بين الزندقة والشعوبية باعتبارهما تيارًا معاديًا للعرب والإسلام معًا .

أماالزندقة، فقد نجمت عن الامتزاج بشعوب من نحَل وديانات شتى، منهاالمانوية والمزدكية والزرادشتية. وقد تعقَّب خلفاء بني العباس هذا التيار بحزم،وبخاصة الخليفة المهدي، الذي اتخذ ديوانًا خاصًا لتعقّبهم. وكان للكتب التي حملتأفكار الزندقة أثرها في طائفة من ضعاف النفوس. ويوجد دائمًا في فترات الانفتاحالعقلي من يولع بالتقليد لأرباب الأفكار الشاذة المستوردة، ويميل إلى اعتناقهاوالولاء لها أكثر من أربابها.

ومن أشهر زنادقة ذلك العصر: ابن المقفَّع، الذي قال فيه الخليفة المهدي: "ماوجدت كتاب زندقة قطّ إلا وأصله ابن المقفع". ومن هؤلاء الزنادقة أيضًا: صالح بن عبدالقدوس الشاعر، وبشّار بن بُرد. وإذا كنا قد خصصنا المهدي بالإشارة في تعقبالزنادقة فإنّ غيره من خلفاء بني العباس لم يقلوا عنه تحمسًا للعقيدة وتعقبًالأعدائها من الزنادقة.

وإذا كان الخلفاء وولاتهم قد تعقَّبوا الزنادقة قتلاً وقمعًا، فإن المتكلمينتعقبوهم حوارًا ومناظرة، وكثيرًا ما كان الحوار يجري بحضور الخليفة. كما تعقَّبوهمأيضًا من خلال نقض آرائهم في مقالاتهم ورسائلهم ومناظراتهم .

أما تيارالمجون، فقد كان أيضًا أحد الوجوه السلبية للاختلاط بالأعاجموانفتاح المجتمع العربي المسلم على عقائدهم وعاداتهم وأخلاقهم من خلال هذا الاختلاطومن خلال حركة الترجمة والنقل التي اتسعت في هذا العصر اتساعًا عظيمًا. والأمر الذيلا شك فيه أنه كان ثمة علاقة وثيقة بين هذه الظواهر الثلاث، وهي: الشعوبية والزندقةوالمجون، وذلك بحكم أنها جميعها كانت صادرةً عن مصدر واحد، هو المصدر الأجنبي، كماكانت صبغة العداء للدولة الإسلامية تشكِّل عاملاً مشتركًا بينها. وحين نطالعالمصادر الأدبية في العصرالعباسييطالعنا أدب مصطبغ بالمجون في شعره وقصصه وأخباره .وفي كتابالأغانيالكثير من أخبار أبي نواس وأشعاره، وكذلك مطيع ابن إياسوحماد عجْرد، وسواهم.

ومع كل ما تقدم فلا ينبغي التصور بأنَّ حياة المجتمعالعباسيقد أسلمت قيادهاتمامًا للشعوبية والزندقة والمجون، وأن هذه الحياة قد تحلَّلت من كل قيود العقيدةوالأخلاق، فلقد كان لتيار الدين سلطانه الذي لم يُقهر، إذ ظهر الزهد والزهَّاد، بلظهرت بواكير التصوف، هذا إلى جماهير العلماء والوعاظ وأهل النُسك، ومجالسهم التيعمرت بها أرجاء بغداد في مساجدها ورباطاتها وقصورها. ومن هؤلاء عبد الله بنالمبارك، وسفيان الثَّوري، ومعروف الكرْخي، وابن السَّمَّاك. كما كان من وعاظالبصرة: موسى الأسواريّ الذي وصفه الجاحظ بقوله: " كان من أعاجيب الدنيا، كانتفصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية. "

على أنه ينبغي ألا نُغفل تيار الحركة العقلية، إذ نضجت العلوم، ورسخت مناهجالبحث فيها، وكثرت المؤلفات في علوم الدين عقيدة وشريعة، فضلاً عن المؤلفات اللغويةوالنحوية، وكتب الأدب الخاص، ودواوين الشعراء. وقد كان التيار الديني والتيارالعقلي يحاولان معًا كبح تيارات الشعوبية والزندقة والمجون. وإذا كانت هذه التياراتقد أحدثت آثارها السَّلبية في المجتمع فإنها شكلت لونًا من ألوان

التحدي للعقلالعربي، فراح يقاومها بكل سبيل، كما حفزت همم أهل الغيرة الدينية للتصدي لهاوالتغلب عليها. وهكذا شهدت الساحة لونًا من الصراع العقلي والروحي. فكان للإسلامتأثيره الواسع في أنحاء الدولة الإسلامية، وانتشرت اللغة العربية، وتعربت الشعوبالأعجمية. وإذا كان من الأعاجم من عادى الإسلام وأهله، فإن جمهورهم الغالب كانسندًا للإسلام، وعضدًا للمسلمين.

أغراض الشعر العباسي وتطوره

حقق الشعر في هذا العصر تطورًا كبيرًا في أغراضه وأفكاره وفي شكله الفني،وزنًا وقافية ولغة. وهذه نتيجة طبيعية لاتساع جوانب التجربة العقلية عن طريقالترجمة والاختلاط بأجناسٍ بشرية مختلفة، وتطور المعارف الدينية واللغوية والأدبية،واتساع حركة التأليف، وظهور المعارف الفلسفية. وفي هذا العصر ظهر من يطلق عليهمالباحثونالشعراء المحدثون، أوالشعراء المولّدون، مثل بشار وأبينواس ومطيع بن إياس.

وترتب على تطور الشعر في تلك الحقبة نشأة صراع حادٍ بين أولئك المحدثين، ومنتصدّى لهم من المحافظين في ما يسمى اصطلاحًا قضيةعمود الشعر .أي: (الأصولالتقليدية المرعية للقصيدة العربية). وكان للغويين خاصة دور كبير في تمثيل تيارالمحافظين، وبخاصة في جانبي اللغة والصورة الفنية للقصيدة العربية. وقد تبدت مظاهرالتطور الشعري فيالأغراض والمعاني، والوزن، والقافية،وبناء القصيدة، واللّغة.

الأغراض والمعاني. هناك أغراض جدّت واستحدثت، وأغراض بقيت على ماكانت عليه، معشيءٍ من التجديد في بعض عناصرها. فمما جدَّ من الأغراضالزهدالذي كان أبوالعتاهية رمزًا بارزًا له، وهناك أبو نواس، وهو وإن اشتهر بالمجون والخمريات، فقدألمّ بشيء من الزهد في بعض شعره في أخريات حياته. وقد كان هذا الزهد إسلاميًّالطابع، ومن هنا حفلتالزهدياتبالكثير من قيم التقوى وترقب يوم الحسابوالإعراض عن ملذّات الحياة الزائلة. وكان هذا الشعر يمثل تيار ردّ الفعل لشعرالمجون والخمريات. ومن الأغراض الجديدةالشعر التعليمي .كما ظهر لون جديد منالشعر هوالشعر الفكاهيالذي ضم النوادر المضحكة، والمعاني الفكهة. وقدهيّأ لظهور هذا اللون الجديد جو المرح واللهو في هذا العصر، وانتشار مجالس الأنسوالسّمر،

خاصة في قصور الخلفاء والولاة والأعيان. ومن هذا ما نجده لدى بشّار فيأبيات له تحكي قصة عشق حمارٍ لأتانٍ، وفيها يقول بشّار على لسان حماره:

سيـدي مِلْ نحو باب
بعناني الأصبهاني
إن بالبـاب فَضلـتْ كـلَّ
أتانـًا أتــان
تَيَّمتني يـوم بثنـاياهـا
رحنـا الحســان
وبحســـنٍ سلَّ جسمي
ودلالٍ وبراني
ولها خـدٌ مثـل خـد
أســيل الشيفـران

ثم سأل أحدُ الجالسين بشارًاعن معنى لفظالشيفران، فأجابه بشار: هذا من غريب الحمار فإذا لقيتم حمارًافاسألوه. وواضح أن الكلمة مرتجلة إمعانًا من الشاعر في التفكُّه، وكان تفسير بشارلها أكثر فكاهةً. وواضح من الأبيات سخرية الشاعر من شعراء الغزل في عصره خاصة. كماأن هذا اللون الجديد من الشعر الفكاهي قد استخدمه فريق من الشعراء للسخرية والنقدلبعض ما لا يروقهم من الأفكار والعادات.

ظهر في هذا العصر أيضًا ما يسمى بشعرالطردياتوهو ذلك الشعر الذي يصفرحلات الصيد والطرائد وكلاب الصيد والصقور، وما إلى ذلك. وهذا الغرض وإن كانت لهجذور فيما سبق من العصور فقد اتسعت جوانبه، وتفنن فيه الشعراء حتى صار فنًا جديدًا،وكان أبو نواس من أبرز الشعراء ميلاً لهذا الغرض. ولا شك أن حياة الترف والثراءكانت وراء هذا الغرض الشعري. كما ظهر شعرالشكوى من البؤس، الذي كان تعبيرًاعن بعض مظاهر الفقر، كما كان سواه صدى لحياة الثراء والترف، وقريب من شعر الشكوى منالبؤس شعرالشكوى من العاهات، وهو ضرب من رثاء ما ذهب من

الأعضاء أو الحواس،مثل أشعار أبي يعقوب الخريمي الذي أكثر من بكاء عاهة العمى لديه، وتصوير مشاهدهومواقفه بكل صدق. وقد كان هذا الغرض الشعري وأمثاله من الأغراض نتيجة لعمق الوعيبالذات، فضلاً عن رقَّة المشاعر التي اكتسبها الشعراء، خاصة بحكم ما أصاب الحياة منالتحضر والرفاهية. كما أن دقة تصوير الشعراء للنفس البشرية في أدق خلجاتها كانتنتيجة لاتساع ألوان الثقافة، التي تثري التجربة الشعرية وتكسبها العمقوالاتساع.

أما الأغراض التي بقيت مع شيء من التطوير فمنها، على سبيل المثال،المديح، وهو غرض عريق شائع في الشعر العربي، غير أن الشعراء المحدثين أثروهبما أدخلوا عليه من عمق التحليل للفضائل النفسية والخلقية، نتيجة لما اكتسبوه منالثقافات، ومثل ذلك شعرالهجاء، فقد تناولوه أيضًا بشيءٍ من البسط والتحليللأخلاق، ولكن في جوانبها السلبية. على أن شعراء هذا العصر بمدائحهم وأهاجيهم قدتغلغلوا في النفس البشرية وكشفوا عن كوامنها، كما أنهم بتناولهم للفضائل والرذائلرسموا المثُل التي ينبغي الإقبال عليها.

ولعل شعرالرثاء، وإن كان غرضًا قديمًا، قد أصابه حظ غير قليل من التطور،فلم يعد رثاءً للناس فحسب، بل صار رثاءً للمدن والأماكن، كرثاء بغداد على أثر ضربهابالمنجنيق في عصر الأمين، حيث عمّها الخراب، وعاث في جوانبها المفسدون.

كما طرأ تغيُّرٌ على الرِّثاء ليصبح رثاءً للحيوان والطيور المستأنسة، وقداستكثر أحمد بن يوسف الكاتب من هذا اللون الطريف، الذي يدل على اتساع آفاق الإبداعالشعري نتيجة لاتساع آماد الثقافة.

ويمكن القول إجمالاً أنه ما من غرض شعري قديم إلا دخله التطوير والتجديد علىأيدي الشعراء المحدثين، على تباين في ذلك.

اللغة. امتدت حركة التجديد في الشعر إلىاللغةوذلك من جملة وجوه توجزفيما يلي:

أولاً: سهولة الشعر، ولا يعني هذا أن الشعراء المولعين باللفظ الغريب قدانقرضوا، فقد بقي منهم أمثال أبي البيداء الرياحي وابن الدُّمينة وأبي ضمضمالكلابي، وقدكانوا من أهل البادية، كما كانوا رواة للشعر القديم وللغة.

على أن هذه اللغة السهلة التي عمد إليها الشعراء المحدثون، لقيت إنكارًا منعلماء اللغة الذين لم يكن ذوقهم يسيغ إلا الشعر القديم بألفاظه الغريبة، وذلكلسببين: الأول يتعلق بقضية الاحتجاج اللغوي، والثاني أنهم كانوا يقتصرون على روايةالشعر القديم ويتخذونه مادةً للتعليم، ويعتقدون أن هذا الشعر القديم هو الوعاءالحقيقي لأصول اللغة.

ثانيًا: استخدام بعض الألفاظ الأعجمية، ومن أشهر الشعراء في ذلك أبو نواس إذ كانيستكثر من هذه الألفاظ، حتى لتأتي بعض عباراته الشعرية فارسية خالصة، ولا شك أنامتزاج الأعاجم بالعرب قد قيَّض لهذا الشعر شيئًا من الرواج.

ثالثا: مخالفة بعض الشعراء للأقيسة المعروفة في اللغة، مما جعل نقاد هذا العصريتهمون الشعراء بالخروج على أصول العربية، مع أن في كثير من مخالفات هؤلاء الشعراءما يمثل لهجة عربية أو يكون من قبيل الضرورات الشعرية. يقول ابن قتيبة ـ دفاعًا عنلغة أبي نواس: "وقد كان أبو نُواس يُلَحَّنُ في أشياء من شعره لا أراه فيها إلاحُجّة من الشعر المتقدم وعلى علَّةٍ بيِّنة من علل النحو. "

وخلاصة ماتقدم أن التجديد في عنصر اللغة خاصة قد أثار تيار الصراع بين القديم،الذي كان يمثّله اللغويون بمعاييرهم التقليدية المتشددة، وبين الشعراء المولدينيساندهم فريق من أنصار حركة التجديد، وعلى رأسهم ابن قتيبة.

الأوزان. تطور شعر هذا العصر في أوزانه، فعمد المولَّدون خاصة إلى المقطعات وإلىالمجزوءات، واستكثروا من الأوزان الخفيفة الزاخرة بالإيقاع وبخاصة المقتضبوالمتدارك، والوزن الأخير أغفله الخليل واستدركه عليه تلميذه الأخفش.

وفي تجديد الشعراء في القافية استحدثوا ما يسمبالمزدوج والمسَمّطات . والمزدوج نوع من النظم المتعدد القوافي، إذ تختلف القافية فيه من بيتٍ إلى بيت، ثمتتحد القافية في الشطرين المتقابلين، وتكون على بحر الرجز. وقد كثر استعماله فيالمنظومات التعليمية بوجه خاص.

أما المسمَّطات فهي قصائد تتألف من أدوار، يتركب كل دور من أربع شطرات أو أكثر،وتتفق شطرات كل دور في قافية واحدة، عدا الشطر الأخير، فإن قافيته تكون مخالفة.

بناء القصيدة. من أهم عناصر التجديد الشعري ما يتعلق ببناء القصيدة، فقد تخلَّصالشعراء المولّدون من المقدمات الطللية التي كانت لدى القدماء، وتجاوزوها إلى أطلالمستحدثة اقتضتها تطورات الحياة، فكان هناك أطلال القصور في المدن تستقل بها قصائدتامة، ولا تتوقف عند المقدمة، ومنها سينية البحتري التي وقف فيها على أطلال إيوانكسرى وصوَّر لوحاته الفنية المنقوشة على جدرانه. وأحيانًا يستخدم الشاعر العباسيمقدمات لقصائده في وصف الطبيعة في المدن، وهي تتمثل في الحدائق التي افتن العباسيونفي تنسيقها، كما اتخذوها متنزهات لهم.